جمالية المأسوي في شعر نسيب عريضة

طالبة الدكتوراه: همسه برهان عباس
كلية الآداب – جامعة البعث
اشراف الدكتور: نزار عبشي

ملخص عربي

تبحث هذه الدراسة في مفهوم المأسوي بوصفه قيمة جمالية وفق نظريات علم الجمال ، فهو يرتكز على مضمون الحزن والألم و التفجع و والشعور بالإحباط و اليأس جراء المواقف النفسية للشاعر إزاء الفقد والرحيل وعذابات الحياة ومشاقها ، و تستقصي هذه الدراسة هذا المضمون في موضوعات شعرية أنشأها نسيب عريضة تتمركز حول الرثاء، والحيرة ومكابدة مشاق الحياة و الغربة والاغتراب و الحنين والشوق إلى الأهل و الديار، واعتمدت هذه الدراسة منهج الاستقراء في بيان قيمة المأسوي وتطورها التاريخي في الفكر الجمالي ، واستقصاء مظاهر المأسوي الحسية والمعنوية في شعر نسيب عريضة، ثم تعتمد المنهج التحليلي الوصفي في دراسة تجليات المأسوي في شعره من منظور جمالي.

* ABSTRACT *

This study is discussing the tragic concept as an aesthetic valve according to theories of aesthetic . It is based on the content of sadness , pain, mourning , feeling frustrated and hopeless due to the port's .

Psychological attitudes . towards life's torments and hardships this study investigates this context in poetry topics that Nassib . Arida Created. It centers around mourning, confusion , struggling .

With the hardships of like, Alienation and nostalgia for.

Families. And homes . this study adopted an inductive approach in explaining the tragic value and its historical development in aesthetic thought and the investigation of its aspects of the tragic .

Sensory and moral in the poetry . Of Nassib Arida It adopts the analytical descriptive that is consistent with aesthetic thanes artistically and intellectually .

المقدمة

شكلت تجربة نسيب عريضة ظاهرة شعرية متفردة في إبراز الإحساس المأسوي بمكابدة الحياة وقضاياها ، واتسمت شعريته بالمأسوية وانطبعت بالاستغراق في الحزن والألم والتشاؤم، فهدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن مفهوم قيمة المأسوي في الفكري الجمالي عند منظري علم الجمال ، و دراسة تجلياتها في أشعاره نسيب عريضة التي تمحورت حول الفقد والرثاء و الحيرة وعذابات الحياة و الغربة والاغتراب و الحنين والشوق إلى الأهل و الديار، إذ ارتكزت هذه المضامين على إبراز الشعور بالحزن والألم والأسى ،وإبداع صور التفجع واللوعة اليأس و الإحباط ،وهذا ما جعلها تجسد مظاهر قيمة المأسوي المعنوية والحسية ومعاني مكوناته الجمالية، واعتمدت هذه الدراسة على المنهج الاستقرائي في تأصيل مفهوم القيمة الجمالية للمأسوي ، والمنهج التحليلي الوصفي في الكشف عن مضمونها في شعر نسيب عريضة. و سنفصل ذلك فيما يأتي :

المأسوي في التفكير الجمالي :

المأسوي قيمة جمالية عريقة في الأدب و الفن عراقة الحياة ذاتها فهو في جانب رئيس منه ينشأ من الألم والحزن الناتج عن الغياب و الفراق والفقد والرحيل ، وفي جانب آخر هو تجليات الشعور بالإحباط والخذلان و الأسى ، وتتعد صور الشعور بالمأسوي بتعدد مواقف الألم في الحياة، وهو بعرف منظري علم الجمال " القيمة الجمالية الناجمة عن الشعور بالإحباط ، وعن الصراع بين القبح و الجمال ،و التفاهة ،و الجلال و الوضاعة و السمو، و في المسافة الوجودية الفاصلة بين ما هو كائن ، وما ينبغي أن يكون .[1]

و القيمة الجمالية للمأسوي تتجلى بصراع الإنسان ضد قوى قاهرة ، وهو عراكاً يخوضه " كائن يعتقد أنه حر ،ضد جبرية خارجية لا مفر منها ولا راد لها[1].

ربط علماء الجمال ظهور مفهوم المأسوي بالمسرح اليوناني الذي قام على فكرة الصراع في الحياة مع قوى تواجهه ومنها أقداره ، فالمأساة تجلت بالصراع " بين قوى ذات أهمية عامة مصيرية ، وجودية أو تاريخية عالمية، ويختم فيها هزيمة وإخفاق الإنسان [2] . وانطلق علماء الجمال من تأسيس المفهوم الجمالي المأسوي من التراجيديا اليونانية، فربطوا مفهومه الجمالي، بالبنية الدرامية للتراجيديا فافترضوا أن المأساة " تنتهي نهاية محزنة وغالباً ما تتجسد النهاية بالموت الجليل، إلا أنها لا تولد لدى المتلقي شعور الألم والخوف ، والحزن الحقيقي ، بل تحركه ، تهزه وتعمق وعيه ،وتنقي عواطفه [3]

وهذا الفهم يشترط عناصر التراجيديا ومنها البطل الجليل الذي يقهر ، لكن هذا الافتراض ، يضيق حقيقة القيمة الجمالية للمأسوي في الحياة و الأدب و الفن ، فموت الطفل مأسوي ،لكن الطفل ليس البطل التراجيدي ، وتجريد أفق المأسوي في الأدب و الفن من صور التي لا تنطوي على البطل التراجيدي ، تضييق شديد المبالغة والتناقض مع الوقائع في الحياة وتجلياتها في الأدب و الفن ، فغالباً ما نجد على سبيل المثال من اشترط البطل التراجيدي ينحو في دراساته التطبيقية لقيمة المأسوي في الأدب إلى دراسة نماذج مثل رثاء الابن والأم و الجدة و الحبيبة [4]، وهذا يعني المأسوي أوسع من ربطه ببطل تراجيدي وهو أشمل ، وهو تجليات أحوال الحزن و الأسى إذ " تطلق صفة المأسوي على كل أمر مفجع محزن.. كما أن صراع الإنسان مع الحياة وتناقضاتها ومحاولته التغلب عليها

1 - علاقة الفن الجمالية بالواقع : ن. غ. تشرنيشفسكي، تر: د. يوسف حلاق ، وزارة الثقافة، دمشق، 1983 ،ص: 56.

2 - علم الجمال، نايف بلوز، ط2، منشورات جامعة دمشق، المطبعة التعاونية، دمشق، سورية، 1983، ص:102.

3 - م،ن ،ص: 102.

4 - ينظر : المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي: د. أحمد طعمة حلبي، وزارة الثقافة، دمشق، 2006 ، ص: 238، ومابعدها.

يتصف بالمأسوي ، فالمأسوي يقوم على الصراع بين القبح و الجمال و التفاهة و الجلال[5]

لم يثر المأسوي بصفته قيمة جمالية جدلاً واسعاً في تحديد مكوناته ، لذلك قل التنظير و النقاش في وصفه و تعيينه ، فذهب أرسطو إلى ارتباطه بالأحوال النفسية ، وجعله مصدر إثارة مشاعر الشفقة و الخوف وهو عامل تطهير من الانفعالات المأسوية [6]. و رأى أن المأساة " محاكاة لمن هم أفضل منا[7] أي حصره بفئة الطبقة العليا في المجتمع " فيمن ذهب سمعه في الناس وترادفت عليهم النعم[8]، وذلك في تصنيفه لنوع المأساة التي كانت تشغل الأدب اليوناني القديم إلى أن تحولت المأساة فيه إلى طرح قضايا العامة في القرن التاسع عشر ، إذ غلب على رؤية أرسطو والكثير من بعده أو معاصريه ربط المأساة بالأدب التراجيدي

وفق هذا السياق لمعنى المأسوي في التفكير الجمالي ذهب سعد الدين كليب إلى رؤية مماثلة فربط المأسوي بالتراجيدي ورأى أن البطل المأسوي أفضل منا وفق معنى روحي "فالبطل التراجيدي هو أفضل منا ، لأنه يجسد المثل الأعلى الذي نسعى إليه إنه أكثرنا بطولية وأكثرنا حباً للمثل الأعلى ، وأكثرنا تضحية من أجل ذلك المثل أيضاً . إنه بسبب أفضليته الروحية ، يعلمنا كيف ينبغي أن تكون الحياة ، وكيف ينبغي أن نكون من أجل إنجاز مثلنا الأعلى في الجمال[9].

يصر سعد الدين كليب على ربط المأسوي بقدوة من المثل النبيلة التي تضحي في سبيل تنوير طريق حياة البشرية إلى إشراق سمو المبادئ و الكفاح من أجل بنائها

5 - المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي ،ص: 233.

6 -فن الشعر : أرسطو ،تر: عبد الرحمن بدوي،ط2،دار الثقافة ، بيروت، 1973،ص:18.

7 - م،ن،ص:43.

8 - م، ن،ص: 35.

9 - القيم الجمالية : سعد الدين كليب، أطروحة دكتورة، جامعة حلب ، كلية الآداب ،1989 ص: 235.

، وهذا ما جعله يكتسب صفة الأفضلية الروحية ، فهو بطل يحمل قضايا إنسانية نبيلة ، يتحمل المشاق من أجل تجسيدها ويعيش أحوالاً مأسوية ، وأهوالاً جمة تكسبه البطولة، والمأسوية ليست مقصورة على الحزن والأسى الناتجين من وقائع ألم البطل المأسوي في كفاحه بل من إجلال ما يمثله من قيم . هذا يعني أن المأسوي يكتسب صفة التقدير و القدوة التي تحتذى و تبجل ، وعراك بطلها الذي يكابد شقاء تحقيق مبادئه يتسم بالبطولة ، ويتعاطف الإنسان مع جمالية صراع البطل بسبب فضله في حمل رسالة سامية و تكبد المعاناة والإحباط والخوف من أجلها ، وهذا يعني إحساس المتلقي بالألم على مصير بطل إنساني نبيل.

و لما كانت الحياة الإنسانية في مختلف مكوناتها ترتبط بالكفاح في سبيل العيش و العدالة والخير، فإن الصراع فيها ركن من أركان وجود الإنسان، ولذلك ذهب كانط إلى أن المأساة صميم الحياة الإنسانية الروحية " فالحياة مأسوية في جوهرها ، لأن التناقض بين الحرية والطبيعة مطلق لا حل له[10] .

ويذهب تشير نيشفسكي إلى أن المأسوي يتجلى بحالين الأول " المأسوي هو عذاب الإنسان أو هلاكه [11]، والثاني هو " المرعب في الحياة الإنسانية"[12] ، وفي الحالين نجده يحدد المأسوي بجزئيات من كلية تؤدي المأسوي ، ولم يربط العذاب بأسباب تجعل مكابدته ذات تقدير خاص ، وفي الثاني لا يمكن للرعب وحده أن يشكل مأسوية هو جزء من اشتمال المأسوي على ما يكسبه المأسوية .

لا يدل تتبع أسيقة منظري علم الجمال للمأسوي على إغلاق لأفق المفهوم وحصره بمكونات ثابتة ، فهو يحمل لديهم مفهوماً يشتمل على أحوال الحزن و الألم و الأسى والخوف والقلق من جهة ومن أخرى عند بعضهم أن يرتبط بأسباب نبيلة ، ويكاد يرى بعضهم المأسوي تجليات مكابدات الإنسان في الحياة ، وكثيراً

10 - علم الجمال : بلوز ،ص: 102.

11 - علاقات الفن الجمالية بالواقع،ص: 38.

12 - م،ن،ص: 53.

ما يختلط عند بعضهم بالتراجيدي أو بالبطولي ، أو بالجليل ، على أن البطولي والجليل نتائج وأسباب للمأسوي لا مكونات .

أما في التفكير الجمالي العربي فلم يحظ بمفهومات وافية عن تشكيله قيمة جمالية ممايزة لغيرها من القيم، ويستدل من تنظيرات مفكري علم الجمال أن القيم الجمالية متداخلة و تتضمن أجزاء من مكونات بعضها فالجليل لا يخلو من الجميل و القبيح لا يخلو من الوضيع إنما للدراسات الجمالية أن تكشف عن المكونات التي تغلب إكسابه صفة قيمة بعينها ، وفي الشعر العربي عامة و شعر المهجر خاصة غالباً ما يرتبط المأسوي بأحوال الحزن والألم والأسى و القلق الناتجة عن أسباب الإحباط والمعاناة والمكابدة و شقاء الكفاح الإنساني والاغتراب و الفقد و الفراق فهو تجليات أحاسيس العذاب و الشجن و المعاناة جراء تلك الأسباب التي قد تكون معيشية ضيقة، أو جراء هموم وقضايا موضوعية نبيلة أو هموم ذاتية فردية ، والشعر المهجري بعمومه ومنه شعر الرابطة القلمية ، هو مصدر لتجليات الأشعار التي تجسد مكونات المأسوي التي ذكرناها ، فهو شعر فئة مثقفة رقيقة الإحساس عاشت ضرراً من واقع بائس مظلم اضطرها إلى الاغتراب الذي يشكل بذاته أفقاً مأسوياً لما فيه مكابدة وشقاء وغربة و حنين وألم.

قيمة المأسوي في شعر نسيب عريضة

تتسع قيمة المأسوي في شعر نسيب عريضة كثيراً، ويكاد مجمل شعره يتكئ على عتبات مأسوية في مختلف تجلياتها، ويكثر أن تظهر في موضوعات مأسوية تقليدية مثل التفجع بالموت والتألم من الفراق، والشكوى من الحياة وتصوير عذاباتها وشقائه في مناكبها، فضلاً عن الانفعالات النفسية التي تغص بها قصائده مثل الوحدة والوحشة واليأس و الإحباط، و الشك والحيرة، وأوجاع الغربة والاغتراب ونوازع الحنين، وشعر نسيب بأكمله يتميز بنزعة وجدانية عالية متعتقة في روح

عجنتها الألم والأحزان فصبغتها بصبغتها، " فأول ما نلمسه فيه حرارة العاطفة أو الفكرة التي تملي عليه القصيدة[13]، وكان لوفاة أخيه أثراً عالياً في تكوين تفجعه الذي ينم عن إحساس مأسوي بمصائب الحياة، و يسهم في تكوين قيمة المأسوي في شعره، إذ" تطلق صفة المأسوي على كل أمر مفجع أو موت إنسان، سواء أكان هذا الإنسان قريباً لنا أم بعيداً، عزيزاً علينا أم غير عزيز، فنحن أمام هذا الحدث الجلل تستثار فينا عاطفة حزن قوية جامحة [14]، وفق هذا الفهم لقيمة المأسوي فإن الشاعر نظم ثلاث قصائد أثبت عليها الإهداء إلى روح أخيه و هي: " صرخة من الوادي [15]، و يا غريب الدار [16] وذكرى الغريب[17] .

يستوفي نسيب عريضة في مجموع قصائد رثاء أخيه نسيج مأساة فجيعة الموت مخصوصة بأخيه مما يجعلها غزيرة الألم ومتوهجة الإحساس المأسوي، تفيض بتصوير ألم الفراق و الفقد، والتوجع من غياب علاقة حميمة عزيزة على روحه، فيبث أشجانه وبكاءه الحار، في مدار أفكار المراثي التي ترتكز على تصوير التفجع، والتألم لفقد مناقب حميدة، و التقلب على جمر ذكريات حميمة يستدرجها من ماض طوى أحد طرفي صاحبها، وقد لا نجد تميزاً في بنى قيمة المأسوي بين القصائد الثلاث إلا في مجال فن التصوير واستدرار مأسوية الموت ، وذلك شأن معظم قصائد الرثاء في الأدب العرب، إذ غالباً ما يكون التمايز في النسج الفني و ابتكار الصور المأسوية، وتطالعنا أولى هذه القصائد في سياق أسئلة شعرية تتفطر لشجوها وأساها النفس، فهو يسائل أخاه بترخيم صاحبي تحبباً وتحنناً، وتوجعاً، عن إقلاعه عن الرد، و يزيد تساؤل العارف استنكار الصمت و إعياء الجواب الموقف الشعري مأسوية:

يا صاح مالك لا ترد أصددت أم أعياك بعد

13 - أدب المهجر: عيسى الناعوري، ص:395.

14 - المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي،ص: 233.

15 - الأرواح الحائرة: نسيب عريضة، مطبعة جريدة الأخلاق نيويورك،1946، ص: 116.

16 - الأرواح الحائرة، ص: 119،

17 - الأرواح الحائرة،ص: 121.

نفسي الأسيرة في الحضيض إليـــــك أيديها تمد
هلا أجبت أليس ما بيني وبينك صـــــاح عهد
أم أنت في كون سحيق لا صـــــدى منه يُردّ
أم قصّرت نفسي ودون مداك أبعاد وجهد
هب أنه حالت بموتك دوننا حـــــجب وسد
أفتعجز الأرواح عن خرق الـحواجز لو تود [18]

تحفل هذه الأبيات التي يفتح بها نسيب قصيدته " صرخة من الوادي" بفيض من مشاعر اللوعة والألم، ويشتد عليه الحزن ، وفجيعة الغياب، فيهتز و تهمين عليه الانفعالات المضطربة من هول إحساسه بالفاجعة، فيستعمل التساؤل تعبيراً عن شدة الاضطراب الذي أوقعه عليه الحزن ، وهو سؤال عارف يذهله الأسى فسأل ما لايجاب أو يجيب، و يعدد الشاعر بصيغة شعرية تضج تفجعاً تساؤلاته التي يضمهنا تسويغ عدم الرد مفترضاً ما لا يفترض، فيسأله عن العهد الذي يحتم عليه الإجابة، ثم يسأله مقراً احتمالاً سبب عدم الإجابة، ألأنه في كون سحيق لا صدى يرد فيه، أم أن الشاعر قصرت نفسه أن تجوب مداه ووهن جهد في عبور المسافات، ثم يتساءل مفترضاً أن سدوداً وحجباً حالت بين جسديهما، أتعجز الأرواح عن احتياز الحواجز التي منعت الأجساد .

تستدرج مجموعة هذه التساؤلات بوحاً وجدانياً شديد الأسى، والألم يتملك على المتلقي نفسه، ويزجه في بوتقة المشاعر المأسوية فيشاركه فيها، ومن غير شك أن المعنى العام لأسى الفقد والتفجع ومناداة الميت لم تكن بجديدة في الشعر العربي إلا أن صوغها الشعري ونسيجها الفني أسهما في تشكيل شعرية مأسوية مبدعة، ثم يستطرد الشاعر في الأبيات التالية لهذا المقتطع في تنويع صور حزنه وألم وفقدانه الصبر، فأغرقه في لجج مأساة كثيفة تراكمت طبقاتها المأسوية.

18 - الأرواح الحائرة، ص:116.

أما في قصيدة " يا غريب الدار" التي أهداها إلى روح أخيه سابا، نجد عريضة يتحدث من خلال الذكرى عن آلام فقدان أخيه:

شفّني التذكارْ وعصاني صبري
وفؤادي غارْ إثر طيف يسري
والدجى محيارْ ليس يدري أمري
أيّها الأقمارْ أين ولّى بدري[19]

يتبع الشاعر في وصف فجيعته بذكرى أخيه منهج الرثائين العرب في الشكوى من فقد الصبر لشدة الأم، و تصوير أن القلب جرى إثر الراحل، و التألم من شدة الظلام حيث يفتقد في حلكته بدره الذي يمثل بأخيه، و في المقطع الذي يليه يتحدث عن ألام تفكيره بالقبر، وفجيعة احتواء حفرته الإنسان الذي كان يشغل الكون بحيوية حياته، و كما قيل عن نسيب أنه كان في شعره " يصر على التحديق إلى النور البعيد[20] فإنه يصر على تأمل ظلام القبر العميق:

يا غريب الدّارْ ملحداً في القفر
تنتهي الأسفارْ كلّها في القبر
حفرة كم حارْ في مداها فكري
شقّها الحفّارْ ومضى لا يدري
أن فيها صارْ كلْ ما في العمر
تنتهي الأفكارْ والخيال الشعري
والهوى والغرارْ والغرام العذري
عندها والعارْ يلتقي بالفخر[21]

19 - الأرواح الحائر، ص: 119.

20 - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأمريكية، ص: 278.

21 - الأرواح الحائرة،ص:119.

أفرد عريضة هذا المقطع لتجسيد مأساة نهاية الإنسان، و انتهائه إلى حفرة مظلمة، و جعلها مدار تأمل هذا المثوى الذي رآه مأساة مفجعة، فجعل فاتحتها أن يلحد الغريب في القفر، وأن تنتهي حياة الإنسان وأسفاره إلى قفر، وبين مدى انشغال تفكيره بتلك الحفرة التي يشقها الحفار ببساطة، و لا يدري أنها ستضم كل ما في عمر الإنسان، وهي مثوى الأفكار و الخيال، والعواطف والأحاسيس و الهوى والحب، ويلتقي فيها العار بالفخر، ينزاح نسيب عريضة بوحي فجيعته بأخيه ليتحدث عن تأملاته المأسوية عن الموت وانتهاء الإنسان إلى حفرة مظلمة و هي بذاتها صورة مأسوية كبرى تحتوي مختلف مكونات المأسوية، وفيها يتجلى القول الشعري الفاجع في أعلى انفعالاته المأسوية إذ" القول الفاجع الشاجي يمكن أن يحمل رفض الكائن للوضع الإنساني المتردي، كما يحمل الأم المصاحب لكل وضع متأزم، والأحوال الشاجية منها أحوال أعقبت فيها الوحشة من الإنس و الكدر من الصفاء [22]، فالشاعر يبطن قوله برفض شاجب لصورة هذه النهاية، وأساه منها ،و يتابع في المقطع الأخير رؤيته إلى مفهوم قدر الموت.

أما في قصيدته " ذكرى الغريب " التي أهداها أيضاً نسيب إلى روح أخيه الفقيد، فإن يتحدث فيها طويلاً، عن فجيعة تغرب أخيه، و شقائه في مناكب الحياة يحمل قيماً إنسانية نبيلة في سعيه حالماً بنشر ها، فيسأل أهل الخلود أن يفتحوا له الباب ويجيرونه :

"ألا أدخلوه أهيل الخـــــــــــلود إليكم ولا تحـــــــــرموه مقيلا
أتى بابكم مدنفـــــــــــــاً حائراً عليلاً فهـــــــلا أجرتم عليلا

22 - مفهوم الشعر،دراسة في التراث النقدي: د. جابر عصفور، ط2،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982، ص: 182.

قضى العمر في التيه في القفر حتى نفته الحياة فألفـــــى السبيلا[23]

تشكّل هذه القصيدة التي بلغت مئة وخمساً وثلاثين بيتاً، نموذجاً شعرياً لقيمة المأسوي، تستطرد في تفاصيل فجيعة الغياب، وتصف رحلة شقاء الأخ في الحياة، وتقدم صورة تفصيلية وجدانية لمناقبه الحميدة، وتفيض بطيوف رؤى مأسوية تستقطب حديث الأروح، وتكشف عن فلسفة الحياة والموت في رؤية عريضة، ويستغرق في وصف دجى ذاته وسط أمواج فجيعته بأخيه، فالقصيدة تستجلى سفراً مأسوياً منسوجاً بتأملات الشاعر لغياب أخيه و مشاقه حياته، وألام ذكرياته، ووحشة الفقد فضلاً عن فلسفته للموت والزمن.

و تغصّ القصيدة بمختلف مكونات المأساة من فجيعة وألم و حزن، وفقد، ووحشة وقلق، وحيرة في فهم الحياة ومصير الإنسان، ولكن قيمة المأسوي في شعر عريضة وبالخصوص في الموت تجسد مفهوم المأسوي من منظور علم الجمال فالشعر بوصفه فناً خطابياً " يعكس درجة من درجات تطور الإدراك للعالم[24].

إذا نجد أن عريضة أوغل في نسج مكونات المأساة ببراعة لكن رؤاه للموت والحياة جعلها في شعرها إلهاماً للغموض و ميتافيزيقيا الروح السابحة في ملكوت الحيرة والشك و تجسد توغلاً معرفياً، والمأساة في شعره تجسيداً لتداعيات الصدمة بالفقد، واستدرار الفجيعة و مظاهرها المعنوية والحسية، و تعبيراً عن عناصر المأساة التقليدية في الرثاء يضاف إليها ربط مأساة الموت بالفقد وبعذاب الحياة قبل الموت من جهة ومن جهة أخرى الاسترسال في تصدير الحيرة والشك من ظواهر عذابات الحياة ومصير الموت و الغياب الأبدي .

23 - الأرواح الحائرة، ص: 121.

24 - علم الجمال عند لوكاتش: د. رمضان بسطاوي، محمد غانم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1991، ص: 98.

ويلاقي نسيب عريضة هذه الأفكار في تكوين قيمة المأسوي في القصائد التي خصها لرثاء الأصدقاء و الأدباء منهم، فهو يخص في قصيدة موت العالم الشيخ عبدالله البستاني

يفتتحها بحوار بينه وبين من استغرب شدة حزنه على الفقيد و تساؤله إن كان أخاً أم قريباً، فيستدرج جملة أسئلة ليبين أن فجيعته كانت بفقد عالم أديب أثرى العقول بنور نتاجه و غادر فقيراً، لم يورث لعائلته ما يكفيهم قوتهم، ويستطرد في ذلك ليكشف عن ثروة الراحل الأخلاقية والأدبية و مواقفه المشرفة، فالمأسوي يتجلى بفجيعة باني الأخلاق و العلم و نزيه السلوك ومنير الفكر:

عظم الأجر في فقيدك يا صـــاح فقم واترك الأســـــــــى لبناته
إن شيخاً كمـــــــن ذكرت فقيراً ليس يبكى و الموت من حسناته
لا ترى ما أقول يا صاح فالخطب كبير كما أرى من ســــــــماته
فبروحـــــي أفديك فاجلس وحدثني بأخلاق من مضـــــــى وصفاته

...

إنه عالم تقول قضى الأيـــــــــــــــــــــــام ما بين طرسه ودواته
هذب الناشئة في أمـــــــــــة ما عرفت حـــــقّ قدر في حياته
رفع النور للضياع وقد أقصاهـــــــــــــــــــم الجهل في دجى فلواته
أنفق العمر دائباً يخدم العلـــم فلم يجزه ســـــــــــــوى حسراته[25]

تتمركز قيمة المأسوي في هذه القصيدة فضلاً عن تصوير فجيعة الموت وما تستدعيه من حزن وأسى وألم، تصوير مأساة العالم والأديب في المجتمع العربي الذي لا يلقى تقدير جهده و العرفان بعظمة بلائه في تنشئة العقول و تربية

25 - الأرواح الحائرة،234.

الأجيال ولا يقدر قيمة ثروة العلم و الأدب و الفضائل الأخلاقية و المبادئ النبيلة التي يحوزها رواده في مجتمع يعنى بالقشور و المظاهر وتقدير إرث الثراء المادي، فهو يتوسع في إبراز مظاهر المأساة المعنوية والحسية في صور حياة الأديب وكده وشقائه وعذاباته في الحياة عامة، وحياة العلم خاصة، فيكشف مأساة فقدان تقدير قيمة الأعلام التنويرية في مجتمع غارق في ظلمات الجهل .

ويتجه نسيب عريضة في قصيدته "عم صباحاً التي أهداه إلى روح جبران في ذكراه الأربعينية " إلى تمجيد جبران و إشراق إبداعه الذي أهله إلى الخلود، فلم يفصل في فجيعة غيابه بل تغنى بخلوده، فهو في تمجيد جبران ينحاز إلى مقولة " الدور الإيجابي للشعر بارز في معالجة هذه الأحول من حيث هي تعبير عن رفض الكائن للمتردي فضلاً عن أن هذا الدور بارز في ضرورة تأكيد الفرحة والأمل من خلال قتامة الفجيعة والشجو[26] ، ويدعو إلى تأمل ما ابتدعه من نور بأدبه:

لا تكن نائحاً فنوحـــك للأرض فكن صـــــامت الأسى وترفع
وانطلق فوق عالم الحس وانظر نور جبران في ذرا الخلد يلمع[27]

لكن الشاعر لا يلبث أن يتجه إلى تجسيد المأسوي بتصوير عذابات الحياة التي يعيش، ودجى الشقاء الذي يكتنفه، والحزن الذي يتقاسمه الجميع في الحياة لكن كل منهم يراه الأعظم:

من حضيض الدنيا تناجيك روحي وأنا في دجى الأسى أتسكع
لست وحدي فحيث أرسل طـــرفي يبصر الطرف والها يتفجع

26 - مفهوم الشعر،ص: 182.

27 - الأرواح الحائرة، ص: 237.

كلنا خال حزنه أعظم الـــــــحزن ولم يحترق ولم يتصـــــــدع [28]

و نسيب عريضة من أكثر شعراء الرابطة القلمية الذين جسدوا في أشعارهم المأسوي الذي ينشأ من فكرة عذابات الإنسان في الحياة، فيكاد أن يكون شعره صدى مأسوياً لعذاباته في الحياة ،وقد أشار الدارسون إلى هيمنة التشاؤم على شعره، وأثر عنه ذلك في مختلف موضوعاته، ومنهم من يرد هذه الظاهرة إلى " تلك الصدمات المتوالية أثرت في نفسية الشاعر الرقيق فانطبع مزاجه بطابع التشاؤم وطفح أدبه بالشكوى من تعس الحياة[29]، غالباً ما ينحت عريضة بشعره تمثال الحياة على هيئة تكوين أسود مملوء بالأسى والشقاء:

دعني وشأني وهل يعنيك من شأني
حديث هم وآلام وأشـــــــــــجان
أنت الخلي ولي حظ الشجي فلا
يعديك مني شقاء العاثر العاني [30]

يفرط عريضة في إبراز الحياة دار شقاء، ويندب دائماً حظه الشقي، فيصور ذاته فلكاً مأسوياً يدور في متاهات الحياة، فلا يملك إلا أحاديث الألم و الهموم و الأشجان، و ويهيمن عليه التفكير المأسوي الذي تولد من تجاربه الشخصية، فانعكست على مجمل رؤيته إلى الحياة،إذ بات يراها مجرد سلسلة متتالية من الآلام، و العذاب، و لا يثير انتباه الشاعر أن الإكثار من تريد الأسى، و هذه الصبغة الحالكة من الحزن تجافي الطباع البشرية في تقبل الشعر" إذا تماد

28 - الأرواح الحائرة، ص: 238.

29 -أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، ص: 272.

30 - الأرواح الحائرة، ص: 49.

استمرار الشاعر في الأسلوب على معان من شأن النفس أن تنقبض عنها وتستوحش منها فقد يحق عليه أن يؤنس النفوس[31]، لكن عريضة لا يأبه من التوغل في سرد أسى الحياة شعرياً، ولا من جعل شعره معرضاً لصور عذاباته بمأسوية شديدة الحلكة، فهو يعيش في الحضيض كما يرى:

أنا في الحضيض
وأنا مريض
أفلا يد تمتد نـــــــــحوي بالدوا
وتبث في جسمي ملامسها القوى
وتقلني من هوتي نحـــــو الذرا
فأسير مستنداً إليها في الورى [32]

يستغرق الشاعر في عرض مظاهر إحساسه المأسوي بجعل أفق عيشه مدار حرمان فظيع في هوة حضيض لا قاع لشقائه، ويعاني وحشة مريرة، فهو أعوز إلى يد إنسانية حانية يتكئ عليها ليخرج من غيابة وحدته وأساه، وتلك أقسى صور المأسوية التي تطبق على نفس الإنسان.

قد لا نستوفي قيمة المأسوي التي تجسد عذاب الإنسان في الحيلة في شعر نسيب عريضة فهي تمتد على أكثر قصائده وتتسع فيها، وتتشعب صوره، لكننا اكتفينا بتلك المقاطع التي تستوفي جوانب مهمة من هذه الظاهرة، ولعل أبرز ما يطالعنا به عريضة في صبغ شعره بالمأسوية صورة مميزة تعكس شقاء الشعراء و مأساتهم الكامنة في الانفصام بين الشعر و الواقع فيكشف عن مخادعة الشعر لحقيقة الشعراء، فنجده في قصيدة " ليل الشعراء " يعري ثنائية الوهم والحقيقة في صلب حياة الشعراء الذين يتغنون بأشياء فيهمون المتلقي بسراب لا ماء فيه،

31 - سر الفصاحة : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي،تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح،القاهرة ، ص: 110،113.

32 - الأرواح الحائرة،ص: 72.

والمقتطع التالي على ما فيه من تهكم مبطن يجسد مأسوية حال الشاعر بين الخيال الشعري و واقعه الذي يعيش :

كؤوس الهوى دارات علينا بليلة وقد أترعت من خمر روح المحبة
فنحن شربنا والأنام ترنحّـــــوا وما غنموا من راحنـــــا غير نشقة
وهمنا فهام الخلق من ذكر حينا ولم ينظروا ليلى ولا وجه عزة[33]

يعرض الشاعر فكرة الإيهام في الشعر، و يكشف عن أساس الخيال الشعري الذي لا يكون إلا وهماً، ثم يكشف أن دولة الشعر في حقيقتها ليل حلم ،ونشوة وأحلام خيال ، و الحياة ليست إلا وهماً وألماً وشقاء وتلك مأساة شعرائها:

فقمنا و نفضّنا غبار عروشنـــا لنظفر مـــــــــن كد الحياة بلقمة
فنحن حيارى في النهار صعالك ونحن ملوك في الدجى أهل سطوة
تملكنا أحـــــــــلامنا وخيالنا ودولة أهـــل الشعر أوسع دولة [34]

وإذا كانت الحياة بنواميسها هي طريق كد وكفاح وشقاء، و عذاب مما يجعلها في نظر منظري علم الجمال مأساوية في تكوينها، فمن غير شك هي مأسوية مضاعفة في نظر الشعراء لفرط حساسيتهم، واتساع أحلامهم و أمدية خيالهم، لذلك كانت الحياة منبعاً ثراً للشقاء عند شعراء الرابطة القلمية ومنهم عريضة الذي كان أشد حساسية في تقبل وقائعها وأحداثها، لذلك استغرق في الشك والحيرة والقلق ، و هي مكونات لقيمة المأسوي ولا سيما في بعث فيض من

33 - الأرواح الحائرة، ص:36.

34 - الأرواح الحائرة، ص:37.

الانفعالات النفسية المأسوية للشاعر التي تشكل أحد أعمدة المأسوي عند أرسطو[35].

وكان للحيرة في شعر نسيب عريضة نصيبها الأوفر سواء في عدد القصائد أو طولها، وهي تسترسل في الكشف عن انفعالات نفسية مأسوية،" و تصور هذه الناحية من جوانب نفس الشاعر كثيرة فقد ضم الديوان أكثر من عشرين قصيدة، وفي كل منها تصوير بارع للحيرة البالغة [36] ، لم تكن هذه السعة في قصائد الحيرة إلا استجابة فنية لهواجس نسيب وقلقه، و رؤاه المأسوية للكون والتكوين وحياة البشر، وهي تجسيد لطوابع ذاته الكئيبة المأزومة، فهو مستلب الكيان للألم والحزن، وعسر التأقلم مع نواميس الحياة، وكثيراً ما تجعله مترعاً بأسئلة الشك عاجزاً عن الإجابة عنها، فيزداد تشاؤمه، وقلقه حتى لا يرى في الحياة إلا تكوينها المأسوي :

عن وكم من أنَّةٍ في وَتَري في صَداها عَنعَناتٌ عن خَبَر
باطلاً تَرجُونَ لَحناً مُفرِحاً قَطَّعَت أطرَبَ أوتاري العِبَر
فَدعُوا قلبي معَ الباكِينَ في مأتَمِ العَيشِ على حالِ البَشَر[37]

فالشاعر يرى أشعاره وتراً يعزف أنينه، ويطلب أن يترك قلبه مع الباكين، فهو يعيش في مأتم حال البشر، ويتهكم من الأمل بالفرح إذ عبر الحياة قطّعت أوتاره ، ولا يحتاج هذا الكم من الأسى إلى تفسير تجسيد المأسوي في ذرا تجلياته، و تمثل قصيدة " مركب الفؤاد نموذجاً للمأسوي القائم على حيرة روح تتخبط هائمة في فضاء الشك والحيرة :

35 -فن الشعر،ص:18.

36 - أدب المهجر: عيسى الناعوري،ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1977 ،ص: 396.

37 - الأرواح الحائرة، ص: 20.

قلبي بـــــلا شراع يطوف في البحار
قد قارب التداعي مـــــــن كثرة الأسفار
سفينـــــــة حقيرة ليس لهـــــا ربان

يجسد الشاعر تخبطه وسط أمواج لائبة، وهو يركب سفينة حقيرة بلا ربان، وقد حولته الأسفار هلاماً من التداعيات، و يتماهى الشاعر مع الحيرة لتتحول في شعره مكوناً مأسوياً يغدق كآبة روحه، لذلك تميز عريضة عن سواه من شعراء الرابطة في تجسيد تجليات الحيرة المأسوية، إذ" غذاها من نفسه حتى صارت تتحرك وتمشي وتتكلم ولكنها لا تبوح بأسرارها [38] مثلما نجده في قصيدة يا نفس التي تتحول إلى بكائية تفيض شجا و ألماً، وأنيناً، وتتفطر فيها النفس من الحيرة أسى روحياً يجسد المأسوي في حلكة سواده :

يا نفسُ مالك والأنيـــــــــن تتألَّميـــــن وتُؤلمين
عذَّبتِ قلبي بالـــــــــــحَنين وكَتَمتِهِ ما تقصُدين
..
أطلقتِ نَوحَك للظـــــــــلام إيَّاكِ يَسمَعكِ الأنام
فيَظُنَّ زَفرَتك النِّيـــــــــام بوقَ النُّشورِ ليوم دِين
يا نفس ما لك في اضطِراب كفريسةٍ بين الذئاب[39]

تفيض نفس نسيب حيرة تغذيها كأبة موجعة تطبعت بها " ومثل هذه الحيرة الشديدة طبعت حياة الشاعر، وأدبه بطابعها لابد من أن ترافقها كآبة كثيرة أيضاً

38 - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية: جورج صيدح ،ط2، بيروت،1957، ص: 166، 168.
ص: 275.
39 - الأرواح الحائرة،ص: 87.

وهل الحياة سوى علامة استفهام كبرى طرفها الأعلى غائب في الألم وطرفها الأسفل مغموساً في الألم كذلك[40]. فالشاعر يغذي صور النفس التي تذوب حيرة بالعنف لشدة ثقل إحساسه بالتمزق والضياع، وضاق بوطأة الحيرة فبات يستصرخ بالأسئلة ذاته، فيتسأل عن مرامها من شدة تفجعها فتجهر بنوحها حتى تسمع الأنام، وتجعل زفراتها بوق النشور، وتضطرب كأنها تتمزق بين أنياب الذئاب، و نجده في قصيدة قلمي، يجرد نفسه على صورة قلم يخط غياهب أسى وفق تصوير شعري مفعم بالقسوة و التهويل :

أوهِ ألَم يُكتَب هذا القـــــــلم إلا بأن يَشـــكو الأسى والألم
يا قلَمي الشارِبَ خَمرَ الشَّجا والمُسمِعَ الطِّرسَ صرِيرَ النِقَم
أفي حمى الغِربانِ ثُقِّفتَ أم بين خَوافيها أُلِفتَ الظُلَم
نشأتَ نَعَاباً فلا غَروَ أن تَحسِبَ أنَّ النَعبَ كلُّ النَغَم
أم كنتَ عُوداً عندَ مُستنقَعٍ في نَبتةٍ تَمتَصُّ ماءَ الرِمَم

..

فاسكُبُ على الأبيضِ من أسودٍ يلذَعُ في الأوراقِ لَذعَ الحُمَم
ما الحِبرُ ما تَنفثُهُ ناقماً ذاكَ سُويداءُ الحَشا يا قَلم [41]

يستطرد الشاعر في هذه القصيدة باستدعاء معرض صور تضج ألماً وكآبة، و لا نحايد الموضوعية إذا قلنا أنه يفرط في المأسوية التي يجسدها العويل والأنين والنحيب، فيستدعي أوسع معجم لفظي للأسى، فتطفح القصيدة بألفاظ مثل: أواه، أسى، ألم، شجا، ومعجم شؤم : الغربان، نعاباً، الظلم، النقم، أسود، الححم، الرمم، يلذع، تنفثه، ناقماً الغراب النعاب، تصب هذه الألفاظ في أسيقة صور

40 - أدب المهجر،ص: 396.

41 - الأرواح الحائرة،ص:201.

بالغة القسوة، فالقلم نشأ نعاباً وثقف بين الغراب في الظلم، وهو يلذع بالسواد الأوراق، فالشاعر ينضح أسى طال استنقاعه في ذاته، فبدا المأسوي ألحان تفجع وندب واستبكاء و نحيب يفوق أجواء المآتم في احتفائه المأسوي.

وتمثل رحلة عريضة الخيالية في قصيدته " على طريق إرم" وهي ملحمة شعرية مأسوية الإحساس في مختلف محطات رحلتها، و القصيدة نمط ساد في شعر المهجر، ولكن قصيدة عريضة تمتاز بتكوينها سفراً مأسوياً، يجمع تجليات مأساة عذاب الحياة، وهواجس القلق وتداعيات الحيرة والشك، و ما تجيش به من آلام و أحزان، و انصباب أسى يغرق القصيدة بصبغة مأسوية. و يصور الشاعر في المرحلة الأولى قلبه يحث السير مسترشد دليل الحواس الخمس خطى السابقين، ويصبغ الرحلة بمأساة شقاء الرحلة فهي تجرى في طريق وعرة يغمرها الدجى و رنين أجراسه أنين الروح:

ارفع الطـــــــرف يا دليلا هل ترى في الدجى حمولا
صوت أجراســــــــا يرنّ تلك أرواحنـــــــــا تئنّ[42]

ويصور المرحلة التالية بتصاعد المأساة فيعبر الطلل الأخير ليصل إلى القفر الأعظم، وحيداً يحمل صليبه على ظهره، يستهدي بنجوم لا يراها:

وسرت وحدي وفوق ظهري صليبي
مستهدياً بنجوم ليست تراها عيوني[43]

42 - الأرواح الحائرة، ص: 182.

43 - الأرواح الحائرة،ص: 186.

ويستيقن الشاعر أن الحواس غير مجدية، ويعرض صراع العقل و القلب، وهو صراع ينطوي على مأساة القلق وشقاء الصرع، ويصل إلى شقاء صراع الشك الذي يشكل جذوة مأساة نسيب عريضة :

وأطلق الشك جيشاً من الظنون وجهجه
ففر عقلي جبانا وجنّ خوفاً وقهقه [44]

ويعصف الشك و الحيرة بالشاعر إلى أن يتفرق به الركب في تبديد الذات بين الأماني و الحقائق، وفي المرحلة الأخيرة من الرحلة وسط شقاء مأسوي يلمح نار إرم، لكنها نار خافتة تنتهي إليها الرحلة، وهي انكشاف لضوء فلسفة قامت على أشعتها القصيدة في رحلتها " وهذا الضوء البعيد الذي اهتدت إليه بصيرة الشاعر بعد جهاد نفسي طويل هو الوحدانية المطلقة في جوهر الحياة [45]:

إيه ضوء بعيد لح ولح ما تريد
ليس طرفي يحيد عنك حتى يعود
لتراب ودود [46]

تشكل هذه الرحلة قيمة المأسوي بامتياز فهي ملحمة صوفية " يستعرض الشاعر مراحل الحياة، ويستوحي القلب أقولاً تعكس روحانية الشرق العربي حين تخب القافلة على ترجيع الحداء، ثم يستنزل العقل أفكاراً عميقة في تعابير حافظ فيها على جو البوادي[47]، فالرحلة استعراض لعذاب الروح و الفكر والوجود، والأمل الخافت في مدى بعيد يعني أن ليس للشقاء نهاية وفق رؤية نسيب عريضة .

44 - الأرواح الحائرة،ص: 193.

45 - أدب المهجر،ص: 395.

46 - الأرواح الحائرة،ص:197.

47 -أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية، ص: 277.

و عرف نسيب عريضة بشاعر الحيرة و القلق ، وهي طوابع نفسية ظاهرة في شعره ، فقد عاش الشاعر في عمق مأساة هذه الهواجس، وكانت الغربة إضافة جرعات مأسوية إلى طابع القلق و الألم الذي طبع نفسه ،فعانى أوجاع الغربة، وتشظت نفسه بين مشاق الحياة في الغربة، ونزعة الحنين إلى الوطن، فاصطبغت حياته بمأساة تمزقه الروحي و " التمزق معطى حضاري عند الأديب .. يتحول عبر الحساسية الفنية معيناً خصباً يغذي أدبه بنفس وجودي [48] و هذا النفس الوجودي هو مأسوي في غربة نسيب عريضة:

أنا المهاجر ذو نفسين واحدة تسير سيري وأخرى رهن أوطاني[49]

ووصف نسيب عريضة عذاباته في لحظات الوداع قبل الهجرة، ولوعة الفراق التي ملأت نفسه أسى، وهو يستعيد قسوة اللحظة من الماضي يزداد حزنه بريقاً، وينسحق عميقاً في هوة مأساة الوادع إذ الشاعر باستعادة اللحظة المؤلمة " يقوم بعملية اختبار غير واعية تفوق سلطان العادة [50] فالخيال يوسع الإحساس الشعري بالمأسوي:

أنا المهاجر لا أنسى الوداع وما جرى من الدمع في أجفان غزلان
ولوعة في حشا الأحباب ما بردت عللتها بلقاء رهن أزمان[51]

48 - البعد النفسي بين التمزق و الصراع في ديوان أبو القاسم الشابي :د. عبد السلام المسدي ، مجلة الطليعة الأدبية، ع:2، سنة:6،بغداد ،1980،ص: 14.

49 - الأرواح الحائرة ،ص: 245.

50 - فلسفة الجمال في الفكر المعاصر : د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، 1981، ص: 93.

51 - الأرواح الحائرة ،ص: 247.

و صور الشاعر فجيعة اصطدامه بواقع الغربة ، و قبح الحياة المادية تختفي خلف بريق الحضارة التي قطع البحار في سبيل الوصول إليها، فيعيش اغتراباً روحياً يتجلى بانفصاله " [52]من ظرف إنساني مثالي " ويستسلم لأساه :

أكوى ما تراه فيها صفوفاً بص منها بريق نور منظم
أم تراها حراشفاً لامعات تنزوى في جسم أعظم أرقم [53]

كان نسيب عريضة شأن شعراء المهجر متحمساً للهجرة بسبب واقع التخلف و الجهل والاستبداد الذي غمس بلاده بظلامه ، فانبرى يحمل حلم الخلاص ، لكنه اصطدم بواقع التيه في آلام الغربة ،وتبدد حلمه ، فترسخ الإحباط والأسى في أعماقه ، وطفق يفني عمره في دروب الحلم والغربة من دون أن يحقق ما يصبو إليها فتعمق شعور الأسى في نفسه :

سار في دربه الطويل سنينا
يتناسى أشواقه والحنينا
يبتغي أن يدافع التنينا
عن فتاة تسيل دمعاً سخينا
تتضرع[54]

تفرد نسيب عريضة بالاغتراب فأسرف في جعل شعره يوقع صدى أنين مأسوي ناتج عن الاغتراب، و الوحدة والوحشة قسراً، أو طوعاً ، وضاعف قيمة المأسوي

52 - الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً: د. قيس النوري، مجلة عالم الفكر ، ع:1، مج:10، الكويت ، 1979، ص:18.
53 - الأرواح الحائرة ،ص:269.
54 - الأرواح الحائرة ، ص: 99.

في تجليات اغتراب الشاعر مزاجه الذي انطبع " بطابع التشاؤم وطفح أدبه بالشكوى من تعس الحياة ،وكيف لا يقنط الأديب المغترب الذي أعد من مواهبه ودراساته عدة النجاح فلم يلق إلى الإخفاق مضافاً إلى وحشة الاغتراب[55]، فهو يرزح تحت وطأة الشعور بالاغتراب و الوحدة :

وقمت و الكأس علت في يدي رفعتها أعلى من الرأس
شربت وحدي نخب نفسي ولم يقلقني هاتف وسواس[56]

لقد استلبت نسيب عريضة حيرة قذفت به عميقاً في لظى مشاعر الاغتراب و الوحشة ،" حيرة كونية تشمل الزمان والمكان برميتهما ،هي سورة روح أزلية تغلي في مرجل ملؤه السماوات والأرض سمعنا صدى زفيرها وأنينها جيلاً بعد جيل [57]، فعاش مأساة الغربة والاغتراب ، وضمن شعره طيفاً واسعاً منها ، و صب جل هذا الطيف في مكونات قيمة المأسوي بوصف فيض من شعور الأسى و الألم و الحسرة ،والإحساس الساحق بالشقاء و العذاب .

وكانت الغربة تستدعي عند أكثر شعراء الربطة القلمية موضوع شعر الحنين ، وكان هذا الغرض عند نسيب عريضة أشد استغراقاً في المأسوية ،فهو حنين يضطرم لوعة وحزناً وألماً ، فيصور نفسه يلتمس حتى النسيم فيشتم به رائحة كثبان رمال أوطانه ، فيذوب حسرة وحنيناً، ويجرد الرياح من جمادها، ويشخصها بكائن يخاطبه ، فيرجوها أن تتدفق ، وتتغلل بين أضلاعه وتطوف إلى كبده ويتمنى عليها أن تبرد تلظى جمر دمعه القاني الذي ينهمل شوقاً وحنيناً إلى دياره وخلانه ، ويدعوها أن تذكره بما نسي، و أن تنبت له أجنحة ليطوف أوطانه:

55 - أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية ، ص: 272.

56 - الأرواح الحائرة ، ص: 23.

57 - الأرواح الحائرة ، المقدمة،ص: 2.

صحبي دعوا النسمات الميس تلمسني فقد عرفت بها أنفاس كثباني
تدفقي يا رياح الشرق هائجـــــة فأنت لا شك من أهلي وأخواني
هززت أغصان قلبي بعدما خلعت ثوب الربيع فماست رقص نشوان
تغلغلي بين أضلاعي إلى كبدي وخففي من حرور السائل القاني
وذكريني بما أنسيتُ من أمل وجنّحيني أرفرف فوق أوطاني [58]

لم تستطع الأيام أن تطوي صفحات ألم الشاعر من الغربة، وسفر الحنين والشوق، بل راح يزيد على مر الأيام لوعة وأسى، فيقر الشاعر أن بعد ثلاثين عاماً من البعد عن الأهل و الوطن لم ينسهما ، لأن عهده فيهما مواثيق أرحام وإيمان ، ويرى أن الشوق و الحنين لا تنطفئ جذوتها بمرور الزمن، واتساع المسافات بقدر تزداد توهجاً وجمراً:

مرت ثلاثون لم أنس العهود وهل تنسى مواثيق أرحام وإيمان
الأهل أهلي وأطلال الحمى وطني وساكنوا الربع أترابي وأقراني
قد كنت أشتاقهم و العين تنظرهم وأعظم شوقي على بعد وهجران[59]

وتشكل قصيدته أم الحجار السود سفراً شعرياً براقاً في تجسيد مأسوية الحنين إلى مسقط رأسه و مرتع شبابه ، فتجلت فيها شعرية تتفطر إبداعاً للمشاعر المأسوية التي ينبض بها الحنين المتقد، فنسمع في حروفها تكسر آهات الحنين، وحشرجة زفرات الألم، فهو عاشق وله، يحن إلى بساتين الميماس وقريته الوادعة الدوير :

58 - الأرواح الحائرة ، ص: 246 ، 247.

59 - الأرواح الحائرة ، ص: 247.

ماذا يكابد في النوى ويقاسي
صبّ يحن إلى حمى الميماس
وإلى الدوير إلى ربوع الكاسي[60]

و ينازعه الشوق إلى وطنه فيغلب توجع الحنين صبره ، فيتأمل بعده ، فتغرق ذاته بالأسى والإحباط واليأس ، فيتساءل إن كانت له عودة ترجى ،بعد ما فات الزمن ، ولم يبق لديه إلا التمني أن يعود إلى حمص، ولو حشو الكفن، وأن يجعل ضريحه من حجار حمص السود ، فتعاظمت قيمة المأسوي في حينن نسيب بمعانيها الدالة على الألم و العذاب، وتجلياتها الشعرية إذ" الشعر صفة علوية أي نقل مفاجئ تقوم به الألفاظ تحت تأثير خاص [61] هو لوعة روحه و تداعيات مشاعره :

يا دهر قد طال البعاد عن الوطن
هل عودة ترجى وقد فات الظعن
عد بي إلى حمص ولو حشو الكفن
واهتف : أتيت بعاثر مردود
واجعل ضريحي من حجار سود [62]

60 - الأرواح الحائرة ،ص: 254.

61 - الأسس الجمالية في النقد الأدبي: د. عزالدين إسماعيل، دار الفكر العربي ، القاهرة،1992 ، ص: 345.

62 - الأرواح الحائرة ، ص: 256.

عاش نسيب عريضة في المهجر سلسلة متلاحقة من المآسي الشخصية، والخيبات طبعت شعره بالتشاؤم و اليأس و الأسى، فكانت بؤرة تتدفق معاني المأسوي ، وهو لم يشط بالحنين مبالغة لترسيخ دلالته على المأسوي ، بل أضحى الحنين مأسوياً لأن الشاعر أدرك أنه في محيط خيبات ذاتية دمرت صرحه أمله بالهجرة ، وهو ينتمي إلى جيل عانى القلق ،و تملكه مزاجاً شديد الحزن ، " إن ذلك المزاج الحزين كان مراج العصر[63] لأنه عصر أسرفت تحولاته بالمادية و تبديد أحلام الشعراء ، فازداد ألهم من المهجر ،واستبد بهم الحنين الموجع، وبات يتضمن ندماً مراً ، فنجد عريضة يطير قلبه من بين جانبيه حين يرى في حانوت سلة فواكه ذكرته بوطنه، فأضحى كل ما يذكره به نبع أسى وحسرة:

واستوقفني على حانوت بقال عيني وقوف مشوق عند أطلال
لسلة ذات ألوان وأشكال فيها فواكه لم تخطر على بالي
ثمار كرم وتين فوق رمان
سل عليه ثمار الشرق أحلاها لمتجر عرضوها لا لمعناها
وقفت أرقبها والقلب قد تاها في بحر ذكرى تناديني بقاياها
إلى عصور خلت من قبل أزمان[64]

عمل الحنين الذي استلب الشاعر على دفعه إلى الإيغال بتفاصيل مشهد السلة ، ونبش مكنون أحاسيسه، وتشخيصها ، فعمق المأسوي إذا جعل السلة تعرف أنه غريب ، فيطير قلبه إلى وطنه حنيناً ،فالشاعر يستدعي الوطن بصورة السلة ، ويكسر مسافات البعد، وحين" يقدم الشاعر بعداً فهو يعرف بشكل غريزي، أن هذا البعد يجري تحديده في اللحظة نفسها بسبب كونه مغروساً في قيمية حليمية

63 - علي محمود طه، الشاعر و الإنسان: أنور المعداوي، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد مديرية الثقافة العام، بغداد، 1965 ،ص: 23.
64 - الأرواح الحائرة ، ص: 92.

[65] لقد كان التصوير المأسوي للسلة وشعوره اتجاهها مكتنزاً بشعرية خصبة الدلالة على المأسوي الذي يضطرم في الحنين ، فقدم تجليات بالغة المأسوية للعذاب الذي يكابده المهاجر:

وقفت رغماً وحولي الناس ما وقفت أراقب السل والأثمار قد بسمت
كأنها إذ رأتني ذاهلاً عرفت أني غريب فحيتني وما نطقت
فطار قلبي حنيناً نحو أوطاني [66]

فاض شعر الحنين والشوق إلى الأهل و الديار عند نسيب بمعاني قيمة المأسوي ودلالاتها ، وتميز عنده بصبغة بالغة الألم والعذاب و الحسرات التي تزهق نفسه، فكان حنيه أنيناً شعرياً مكتظاً بدواعي الأسى و التفجع و اللوعة التي تكون قيمة المأسوي .

الخاتمة :

نستنتج من هذه الدراسة أن قيمة المأسوي في التفكير الجمالي تتسع لتتضمن معاني الحزن والألم الناتجة عن طبيعة الحياة ومساقاتها ، و المواقف الإنسانية تجاه الفقد ،و الصراع مع شقاء الحياة وإحباطاتها، و الأحوال النفسية التي تنشأ من رؤيا الشاعر الغارقة في تساؤلات الحيرة والشك، و أن شعر نسيب عريضة اتسع في تجسيد المأسوي في تأسيه على من فقد وارتحل، و أن حيرته التي صبغت شعره تنطلق من إحساس مأسوي مفرط بالألم ، و زادت تجربته في الغربة شعوره بالمأسوي وأضافت إلى ألم الغربة المكانية تمكين مأسوية الاغتراب بوصفه أحوالاً نفسية تنتج عن انعدام التآلف مع الواقع الذي يعيشه ، وكان الحنين والشوق إلى الأهل و الديار في شعره يصدر عن شعور مأسوي حاد ، فطبع شعريته باللوعة و العذاب و الألم .

65 - جماليات المكان : غاستون باشلار،تر: غالب هلسا، ط4، المسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، 1996،ص: 172.

66 - الأرواح الحائرة، ص: 93.

تضافرت جملة هذه المعاني لتجسد قيمة المأسوي في كثير من مكوناته وفق نظريات علم الجمال ، وإن غاب عنها عنصر البطل التراجيدي الذي افترضه بعضهم ليكمل قيمة المأسوي، لكن الشاعر في تجاربه جسد بطولة مأسوية إذ استغرق شعره في صور الأم والأسى و الإحباط والشك ، فكان معرض صور مأسوية تثير الإحساس بجمالية هذه القيمة وتفردها بطغيان التشاؤم والسوداوية على نبضات شعره الذي تحول إلى آهات، وحسرات، وفيض دمع ووجع وانكسار تجلت فيها نفس نسيب عريضة الغارقة بإحساس مأسوي في رؤاها للحياة سبحات عذاب وشقاء ، وفي تجاربه الشخصية من فقد أحبته وهجرة وطنه وأهله، و تشبعه بالريبة والشك والحيرة .

المصادر والمراجع :

1- أدب المهجر: عيسى الناعوري،ط3، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1977 .

2- أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية: جورج صيدح ،ط2، بيروت،1957.

3 – الأرواح الحائرة: نسيب عريضة، مطبعة جريدة الأخلاق نيويورك،1946.

4- الأسس الجمالية في النقد الأدبي: د. عزالدين إسماعيل، دار الفكر العربي ، القاهرة،1992.

5- جماليات المكان : غاستون باشلار،تر: غالب هلسا، ط4، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر و التوزيع، بيروت، 1996.

6- سر الفصاحة : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان الخفاجي،تح: عبد المتعال الصعيدي، مكتبة صبيح،القاهرة ،(د.ت) .

7- علاقة الفن الجمالية بالواقع : ن. غ. تشرنيشفسكي، تر: د. يوسف حلاق ، وزارة الثقافة، دمشق، 1983.

8- علم الجمال، نايف بلوز، ط2، منشورات جامعة دمشق، المطبعة التعاونية، دمشق، سورية، 1983.

9 – علم الجمال عند لوكاتش: د. رمضان بسطاوي، محمد غانم ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1991.

10– علي محمود طه، الشاعر و الإنسان: أنور المعداوي، منشورات وزارة الثقافة و الإرشاد مديرية الثقافة العام، بغداد، 1965 .

11 – فلسفة الجمال في الفكر المعاصر : د. محمد زكي العشماوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ، 1981.

12 –فن الشعر : أرسطو ،تر: عبد الرحمن بدوي،ط2،دار الثقافة ، بيروت، 1973.

13– في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي: د. أحمد محمود خليل، ط1، دار الفكر، دمشق، ودار الفكر المعاصر، بيروت، 1996.

14– المفاهيم الجمالية في الشعر العباسي: د. أحمد طعمة حلبي، وزارة الثقافة، دمشق، 2006 .

15– مفهوم الشعر، دراسة في التراث النقدي: د. جابر عصفور، ط2،دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982.

الدوريات :

16 – الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً: د. قيس النوري، مجلة عالم الفكر ، ع:1، مج:10، الكويت ، 1979.

17 – البعد النفسي بين التمزق و الصراع في ديوان أبو القاسم الشابي :د. عبد السلام المسدي ، مجلة الطليعة الأدبية، ع:2، سنة:6،بغداد ،1980.

الرسائل الجامعية:

18 – القيم الجمالية : سعد الدين كليب، أطروحة دكتورة، جامعة حلب ، كلية الآداب ،1989.